٤٤٠
٢٠١٥/٧/٢٠

أفكار غيَّرت العالم

١٥

المهاتما غاندى
روح الهند العظيمة

بقلم :
د. منال القاضى

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

كتب أطفال وناشئة

سلسلة أفكار غيرت العالم

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القاضى، منال.
المهاتما غاندى: روح الهند العظيمة.
تأليف: منال القاضى.
- ط١ - القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٤.
٢٤ ص؛ ١٩,٥ سم. (أفكار غيرت العالم؛ ١٥)
تدمك ٣ - ٨٠٢٦ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ -الهند - الملوك والحكام.
٢ -غاندى، موهنداس كرمشند ١٨٦٩ - ١٩٤٨.
(أ)العنوان.

ديوى ٩٢٣,١٥٤

رقم الإيداع ٢٣١٨٩ / ٢٠١٤

٢١/ ٢٠١١/ ٧

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

غاندى فى سطور:

- وُلِدَ فى بورباندر عام ١٨٦٩ وكانَ أَبوه قائدًا علَى هذه المدينةِ.
- درسَ القانونَ فى إنجلترَا، حيثُ سَافرَ إلى هنَاكَ عَام ١٨٨٩.
- سافَر إلى جنوبِ إفريقيَا كىْ يعملَ محَاميًا وبَقِىَ هناكَ سنواتٍ يُحاربُ العنصريَّة.
- عادَ إلى الهندِ عَام ١٩١٥ ليؤسِّسَ مركزَهُ الرُّوحىَّ فى سَابارماتى.
- أعلن حملةَ عدمِ التَّعاونِ مع الإنجليز عَام ١٩٢٠.
- ظلَّ يناضلُ ضَدَّ الإنجليزِ بقوَّةِ الحقِّ ويَدعو إلى نبذِ العنفِ حتَّى نالتْ الهندُ استقلالها عَام ١٩٤٧.

من أقواله:

- العنفُ غِطاءُ العجزِ.
- كلَّما أدرسُ أكثر أكتشِـفُ أنَّ قوةَ الإسلامِ لا تكمنُ فى السَّيفِ، ولكن فى نهجِهِ التَّربوىِّ.

كانوا داخلَ المركز الرُّوحيِّ الَّذى أنشأهُ «غاندى» فى سابارماتى.

هناكَ همساتٌ تدورُ من آنٍ إلىَ آخر؛ أحيانًا كانَ يقومُ أحدُهم، أو يتنقلُ من هَنا لهنَاكَ، ولَكن الترقبَ كان يتملَّكُ الجميعُ.

دارتْ عينَا «كاستروباى» زوجةِ «غاندى» فى أنحَاءِ المركزِ، تسمَّرتَا على أحدِ المنبوذينَ انضمَّ إليهمُ مؤخَّرًا، كانَ يجلسُ إلى عجلةِ الغزْل الخاصَّةِ بهِ، مثلُه مثلُ الآخرين، إنَّه ليسَ المنبوذَ الوحيدَ فى المركز فهنَاكَ آخرونَ ينتمونَ إلى طبقةِ البَاريا، هذه الطبقةُ الّتى لاتخالطُها باقى الطَّبقاتِ وفْق التَّعاليم الهندوسيَّة، والَّتى قُدِّرَ علَى أفرادِها العملُ بأحطِّ المهنِ، إنَّ مجرد سقوطِ ظلِّ أحدِ هؤلاءِ علَى فَردٍ منْ بَاقى الطَّبقات كافٍ كى يدنِّسه. لقد قُدِرَ علىالمنبوذينَ أن يَنزووا فى الظِّلِّ، أن يتحرَّكوا ويَعيشوا ويتناسلوا دونَ أن يلحظَهم أو يقتربَ منهم أحدٌ من باقى الطَّبقاتِ. ولكنَّهم هَنا فى المركزِ الرُّوحيِّ الذى أنشأهُ «غاندى» يتحركونَ بحُريَّة، ولهم من الكرامةِ والحقوقِ مَا للآخرين.

ولكن ماذا بعدُ، مَا هى الخطوةُ التَّاليةُ؟

نظرتْ ناحيةَ «غاندى»، تأمَّلت عينيهِ الواسعتينِ وجسدَه النَّحيلَ، كأنَّما تحاولُ أن تستشفَّ إجابةً.

كان «غاندى» مشغولاً أيضا بغزْل القماش.

اقتــربَ مِنهُ عجوزٌ نحيفٌ، تتناثرُ علَــى جبينِهِ خُصْلاتٌ من شــعرِهِ الأبيض. مَا اســمُه؟ حاولتْ التَّذكرَ بينمَا انحنى العجوزُ ليهمسَ فى أذنَ زوجهَا بكلماتٍ قليلة.

هــزَّ «غاندى» رأسَــهُ موافِقًا، فهمَتْ «كاســتروباى»، هناكَ زوَّارٌ كالعَادةِ.

دقائق وعادَ العجوزُ ثُمَّ عادَ ومِنْ خلفِهِ رجالٌ ونســاءٌ جَاءوا مِنْ أجْل لقاءِ المُعَلِّم.

الزَّائرونَ كثرٌ فى المركزِ الرُّوحىِّ، صحفيونَ، مراسلونَ أجانب، وفودٌ قادمةٌ من مختلفِ أنحاء الهندِ لتلتقىَ بالمُعَلِّم «غاندى».

اقتربتْ «كاستروباى» وانضمَّتْ إليهم.

واصــلَ «غاندى» الغزْلَ. وهوَ ينظرُ خِلْســةً إلــى زوارِه، فكَّرَ «إنَّهم ينتظرونَ»

لــم يتحــدثْ «غاندى» مــعَ أىِّ مُنهم، بدا أنَّــه يُنصتُ إلى شــىءٍ مَا داخلَه، إنَّه دائمًا مَا يتركُ لأعماقِهِ مهمةَ القيَادةِ فى اللحظاتِ الصَّعبة.

علتْ وجهُهُ غلالةٌ رقيقةٌ من الأسىَ، لا.. ليسَ الأسىَ تحديدًا ولكنَّه شــعورٌ غامضٌ، كأنَّما فُوجِئَ فى طريقه بهُوَّةٍ، ولكن عليهِ

عبورَها، إنَّه يشعرُ فى هذه اللحظةِ بالارتبَاكِ وعدم التَّيقنِ، ولكن كيفَ يقولُ ذلكَ ولِمنْ؟

كانَ يعْلَـمُ أنَّ الهندَ كلَّها مِنْ خلفِـهِ فى تلكَ اللحظةِ، لا يجبُ أن يُظْهِرَ حيرتَه، إنَّه أمرٌ فى منتهى الخطورةِ، فهوَ الآنَ يتحمَّل مصيرَ أمةٍ، ولكن مَاذا بعدُ؟؟؟

سألَهُ أحدُ الحضورِ «مَاذا بعدُ؟؟؟»

بُوغِتَ «غاندى» بالسؤال وفكَّرَ.

«هلْ هىَ مُصادفةٌ، أن يرددَ الزَّائرُ السُّؤالَ نفسَه الَّذى يشغلُه، منذُ أن طالبَ صديقُه «نهرو» بإعَلانِ استقلالِ الهندِ»؟

توقَّفَ عن الغزْلِ لحظَاتٍ، ورفعَ رأسَهُ ليتأمَّلَ مَا حوْلَه. كانتْ عيونُ الجميعِ معلقةً بِهِ.

شعرَ بالحيرةِ.. تُرى مَاذا يَقولُ؟ ليسَ لديهِ إجابةٌ محدَّدةٌ.

كانَ مثـلُ الجميعِ يدركُ أنَّه لابدَ من فعل شـىءٍ قوىٍّ وإيجابىٍّ فى هذَا التَّوقيت. ولكن مَا هوَ؟؟؟

يريدُ أن يَبُثَّ القوةَ فى الأمةِ الهنديَّةِ ويبعثَ لديْها روح الكفَاح والأملِ ولكن كيفَ؟؟ كيفَ؟

تردَّدَ السُّؤال داخلَه و اصطدم بالفراغِ.

عادَ الغزْل وحاولَ ترتيبَ أفكاره من جديدٍ.

إنَّــه الآنَ عَام ١٩٣٠ وقد مضتْ ســنواتٌ عديدةٌ وهَو يُكافحُ من أجلِ استقلالِ الهندِ، ولكن الإنجليزَ لمْ يَستجيبوا.

هزَّ كتفيْه فى تهكُّم وخاطَبَ نفْسَه:

«لقد اســتجَابوا بطَريقتِهم، المُســتعمِرُ هو المُسْتعمِرُ، يتبعُ الطُّــرقَ الملتوية كى يوهمَ ضحَّيته أنَّــه يفهمُ ويقِّدرُ ويحاولُ حل المظَالم، لمَاذا لا يرحلونَ ويتركونَ الهندَ فى سلام»؟!

كانَ يفكِّرُ فى اللجنةِ الَّتى شكَّلها الإنجليزُ لدراسةِ أحوالِ الهندِ.

عادَ غَاندى لمخاطبةِ نفْسِه:

«إنَّهــم يراوغونَ، لنْ يمنحونَا الاســتقلالَ الَّذى نريدُ، لو كانَ الإنجليزُ حَسَنى النيةِ لما تشكَّلتْ اللجنةُ بهذِه الصُّورةِ»

نظَرَ «غاندى» ناحيةَ زوجتِه «كاستروباى» وقالَ بصوتٍ مَسموعٍ مَا ردَّده على مسَامعها مراتٍ:

«لجنةٌ لدراسةِ أحوَالِ الهندِ دونَ أنْ يَكون بينها هندىٌّ واحدٌ؟؟ إنَّه تصرُّفٌ بعيدٌ عن العدالةِ».

علتْ همهمةٌ، انتبه «غاندى» ليجدَ العيونَ تتوسَّلَ إليه:

«افعلْ شيئًا أرجوكَ».

عَـاود غَاندى الغـزْل، لقد فعلَ، لقـد اعترضَ علَـى اللجنةِ منـذُ اللحظـةِ الأولىَ، ودعَا الهنـودَ إلى مقاومـةِ الإنجليزِ بقوةِ «الساتياجراها»، وهىَ كلمةٌ تَعنى قوةَ الحقِّ.

توقَّف «غاندى» عن الغزْلِ، ولكن هلْ مَا فعلَه يَكفى؟؟

إنَّه لا يكفى بعد مَا فعلَه «نهرو» مؤخَّرًا، لقد طالب فى جسَارةٍ إعلانَ استقلالِ الهندِ.

نظَر «غاندى» ناحيةَ «نهرو»..

«إنَّه ايضًا ينتظرُ وبداخِلِه السُّؤال نفسُه، مَاذا بعدُ؟».

وضعَ «غاندى» عجلةَ الغزْل والتفتَ إلى الجميعِ وأجَابَ «سوف أبدأُ مسيرةً علَىَ الأقدامِ نحوَ الشَّمالِ».

علتْ الوجوهَ الدهشةُ..

* * *

ارتدىَ «غاندى» الزِّىَّ الهندىَّ المُسمى بالدَّاهوتى، تحسَّسه فى فخرٍ.. لقد غَزَلَه بنفسِهِ، هناك ملايين الهنودِ الآنَ الَّذين يغزلونَ ثيابهَم بأنفسِهم.

منذُ سـنواتٍ قليلةٍ لَمْ يكُن الأمرَ كذلكَ، حتَّى كانَ عَام ١٩١٩، أعلنَ «غاندى» سياسةَ عدمِ التَّعاون معَ الإنجليزِ.

كانَ يؤمنُ بأن الإنجليزَ لايستطيعونَ حُكْمَ شعبٍ رغمَ أنفِهِ.

وكـى ينجحَ، طالبَ «غاندى» الهنـودَ أن يكونوا أهلاً للحريَّة الَّتى يرجونَها. خاطَب مؤيديهِ قائلاً:

«لا بدَّ من الاعتمادِ على النَّفسِ والرُّجوعِ إلى التَّقاليد الهنديَّةِ».

كانَ واثقًا فى قدراتِ شعبِهِ، ومُصِرًّا أن تنالَ الهندُ حريتَهَا.

صنعَ الهنودُ آنذاكَ محرقةً كبيرةً ألقوا فيهَا الملابسَ المُستوردةَ، وحملوا عجلات الغَزْلِ. وبدأو فى غزلِ ملابسِهم بأنفسِهم.

اقتربتْ منه «كاستروباى» وساعدتْه فى ضبطِ الإزارِ على كتفِهِ وسألتْه: «فيمَ تفكِّر؟».

ردَّ «غاندى» بصوتٍ عميقٍ:

«المحْرقة».

رفعتْ «كاستروباى» حاجبيْها مستفهمةً، فردَّ «غاندى»:

«محرقةُ المَلابس المستوردةِ، هلْ تذكرينَها؟».

هزتْ «كاستروباى» رأسَهَا:

«بالطَّبع.. بالطَّبع وأذكرُ أيضًا مذبحةَ أرميستار».

قطَّبَ «غاندى» جبينَهُ كأنَّما طفتْ إلى ذاكرتِهِ مشاهدَ آلمتْه.

لقد أطلق الإنجليزُ النَّارَ على أعوانِه العُزَّل فى أرميصتار، لقد أرتْه هذه الواقعةُ الوجهَ الهمجىَّ للإنجليزَ وفضحتْ حضارتَهم الزَّائفةَ.

أعلَن بعدَها:

«الإنجليزُ لايستحقون أن يحكمونَا ولن يفعَلوا بعدَ اليوم».

ثُـمَّ دعَا الهنـودَ إلى تبنِّى سياسـةِ عدمِ التَّعـاونِ، وحرقِ المَلابس المستوردةِ.

قالت له «كاستروباى»: «لقد كانتْ حملةً ناجحةً».

هزَّ «غاندى» رأسَـهُ: «لمْ تحقِّقْ مَا رجوتهُ منهَا بعد مَا حدثَ فى تشاورى تشاورا».

استعادَ أحداثَ العنفِ الَّتى حدثتْ وقتذَاكَ. لَمْ يكن يريدُ ذلكَ، شـعرَ «غاندى» بالعجزِ وقتَهَا، كانَ يريدُ أن يسـودَ التَّسامح بينَ أبناءِ شعبِهِ وأن يحاربوا بقوةِ الحَقِّ لا بإسالةِ المزيدِ من الدِّماء.

اعتبرَ نفسَـه مسـئولاً وطالبَ مُحَاكميـه أن يوقِّعوا عليه أقصى العقوبةِ.

تعاطفَ القَاضى مع قضيتِهِ، حُكِمَ عليه بست سنواتٍ، ولكنَّه أعلنَ أيضاً أنَّه سـيكونَ سعيدًا لو خُفِفَ عنه الحكمُ، لم يمكثْ «غاندى» داخلَ السِّجنِ أكثرَ من عاميْن، أُفرِجَ عنه لتدهورِ صحتِهِ.

كلُّ هـذه الأفـكارِ توالـتْ عليـهِ وأكثـر منها، لـوْلا صوت «كاستروباى» الَّذى جاءَه مثلَ ناقوسٍ يحاولُ إفاقتِه لاسترسل.

سألته:

«لمْ أفهمْ مَاذا كنتَ تعنى بالأمسِ؟»

التفتَ إليها فأوضحتْ:

«لمَاذا السَّير إلى الشِّمالِ؟»

ضحكَ «غاندى» وقالَ:

«أريدُ الوصولَ إلى الشَّاطئِ».

هزَّتْ «كاستروباى» كتفيْها فى عدمِ فَهْمٍ، وقبلَ أن تبادرَه بأىِّ أسئلةٍ أخرى قالَ:

«أريدُ الحصولَ علَى القليل من الملْح، ملءِ قبضةٍ لا أكثر».

قالَ هذاَ وفردَ كفَّه أمامَهَا مُداعبًا ثم أردفَ قائلاً:

«وأنتِ يا«كاستروباى» أريدُ منكِ المكوثَ هنَا فى سابارماتى».

هزَّتْ رأسهَا: «كمَا تحبُّ».

ولكـن الحيرةَ كانتْ بَاديةً عليهَا، لمَـاذا يريدُ «غاندى» بلوغَ الشَّاطئِ؟ أحقًّا يريدُ قبضةَ مِلْحٍ؟ لمَاذا؟

***

غادرَ «غاندى» مركزَه الرُّوحىَّ فى سابارماتى، يرافقُه سبعونَ من مؤيديهِ.

تأمَّـل الطَّبيعةَ من حولِهِ وتردَّدتْ داخلَه أبياتٌ كتبهَا شـاعرُ الهندِ العظيم «طاغور». راحَ ينشدُها:

كنتْ أظنُّ أنَّ رحلَتى أوشكتْ على النِّهايةِ
وأنَّ قُواى قد بلغتْ غايةَ الإنهاكِ
وأنَّ الطَّريقَ أمامى مسدودٌ
وأنَّ زَادى قد انتهىَ
وأنَّه رُبَّما حانتْ ساعةُ الانسحاب إلى الصَّمت والظَّلام
ولكننى اكتشفتُ يا إلهى أنَّ إرادتَكَ لمْ تحدِّدْ نهايةً لِى
فعندمَا تموتُ الكلمَاتُ القديمةُ تتدفَّقُ أنغَامٌ جديدةٌ من القلبِ.

سألَهُ أحدُ مرافقيه وكانَ يستمعُ إلى أبياتِ الشِّعرِ الَّتى يردِّدُها: «هلْ تحبُّ «طاغور» أيُّها المهاتما؟».

ابتسمَ «غاندى» «فطاغور» هوَ منْ أطلقَ عليهِ لقبَ المهاتما.

تأمَّل مَا حولَهُ من جمالٍ وردَّ علَى رفيقِه:

«إنَّ الهندَ الَّتى أنجبتْ شاعرًا مثل «طاغور» تستحقُّ الحريَّة».

سـارَ الرَّكبُ وانضمتْ إليه أعدادٌ غفيرةٌ من كلِّ صَوْبٍ وتوالتْ الأسئلةُ والإجاباتُ:

«إلىَ أين يذهبُ المهاتما؟».

«إنَّه متَّجهٌ إلى شاطئِ البحرِ».

«لمَاذا؟».

«من أجل قبضةٍ مِلْحٍ».

«لا تَمضوا دونَنَا سننضمُ اليكمُ»

لَمْ يكنْ كلُّ مـن انضمَّ إلى «غاندى» يدركُ مغزى الرِّحلةِ، ومعَ ذلكَ انضمُّوا إلى موكبهِ ثقةً فيهِ.

واصَـل المهاتما رحلتَـه أيامًـا، كان غذاؤه بعـضَ الفاكهةِ والسُّكرِ، وفى المسَاءِ كان يفترشُ ثوبًا غزلَه بنفسِهِ، ويحدِّق فى النِّجومِ البعيدةِ.

* * *

بقيتْ «كاستروباى» فى المرَكزِ الرُّوحىِّ فى سابارماتى وكانتْ تتابـعُ مسـيرةَ زوجِهَا فى قلـقٍ. وقدْ أدركتْ خطـورةَ مايفعلُهُ، باتِّجاهِهِ نحوَ الشَّاطئِ لاغتراف الملح.

لمْ تكنْ أول المصَاعب ولنْ تكونَ آخرَها، فلمَاذا القلقُ الآنَ؟

حاولتْ أنْ تُطَمْئِنَ نفسَهَا:

«غاندى ليسَ مجردَ عجوزٍ فى السِّتين، إنَّه روحُ الهندِ العظيمةِ».

استعادتْ حياتهمَا معًا، التقتْ بهِ كمَا تلتقى بقدَرٍ، خطبهَا وهى فى الثَّامنةِ من عمرِهَا وتزوَّجَهَا عندمَا بلغتْ الثَّانية عشرَة، ولم يكنْ تجاوزَ فى ذلكَ الوقتِ الثالثةَ عشرة.

التقاليدُ الهنديَّة سمحتْ بزواجهمَا، كانَا مجرد طفلين، وكانتْ تبكى لأنَّها لَنْ تتمكنَ من اللهو كما يَحلو لهَا بسببِ هذهِ الزِّيجةِ.

كبرَا سويًّا وأنضجتهمَا العديدُ من التَّجارب. واصل «غاندى» دراستَه وسافرَ إلى إنجلترَا لدراسةِ القانونِ وبعدَ عودتِهِ إلى الهندِ، وكَّلته الشَّركةُ الإسلاميةُ الهنديَّة لمتابعةِ إحدى قضاياهَا فى جنوبِ إفريقيَا.

هلْ هَو القدَرُ مرةً أخرى الَّذى بعثَ بهِ إلى هناكَ، ليقفَ علَى مشَاهد مروعةٍ من الظُّلم وليلمسَ بنفسِهِ مَا كانَ يعانيه الهنودُ هنَاك من تفرقةٍ عنصريَّةٍ.

حكىَ لَها كيفَ استدعى لَه أحدُ البيضِ الشُّرطةَ، لمَاذا؟ ليسَ لأنَّه اعتدى عليهِ أو حاولَ سلبَ حقِهِ، ولكن لأنَّه ركب إحدىَ العربَاتِ المخصصةِ للبيضِ!.

حاولَ استخدامَ الحُجَّةِ والمنطق مع ذلك الشُّرطى، مستعينًا بالقانون الذى تعلَّمه فى إنجلترا ولكن الشَّرطى بدا أصمَّ وألقى بهِ خارجَ العربةِ ليواجهَ وحدَه البردَ القَارسَ.

قضىَ ليلتَه فوقَ أحدِ الأرصفةِ، تأكلُه الأفكارُ السَّوداءُ، ليسألَ نفسَه مراتٍ: «هلْ حدثَ ذلكَ أمْ كانَ كابوسًا؟»

فارقَه خجلُه منذُ تلكَ اللحظةِ وتملكتْهُ جَرْأةٌ شديدةٌ ورغبةٌ فى تغيير الواقع المأساوىِّ الَّذى يلقاهُ الهنودُ فى جنوبِ إفريقيا امتدَّ به المُقَامُ فى جنوب إفريقيا، قرَّرَ السَّفر إلى الهندِ لاصطحَابِ أسرتِهِ.

فورَ أن رسوْا علَى شاطئِ جنوبِ إفريقَيا تعرَّضوا للعنفِ والمطَارداتِ من قبلِ البيضِ كَانوا يصيحونَ:

«لانريدُ مزيدًا من الهنودِ فى بلادِنا».

بكتْ ليلتينِ متتاليتيْنِ بعدَ هذهِ الواقعةِ ليسَ هَذا ما كانتْ تتوقَّعُه، كانتْ تتوقعُ حياةً ميسورةً تتناسبُ مع ثراءِ زوجِهَا، تمنتْ الرَّحيلَ بلا رجعةٍ بعيدًا عن ذلكَ الرَّجلِ الَّذى عرَّضها لهذاَ الموقفِ الصَّعبِ.

لم تستطعْ مواجهتَه بأفكارِهَا. حاولتْ ولم تتمكَّنْ.

ولكنَّها انفجرتْ أخيرًا حينَ رأتْ جمَاعةً من المنبوذينَ الهنودِ يدخلونَ بيتَها ذاتَ يومٍ و«غاندى» يستقبلُهم فى بشاشةٍ.

واجهتْه قائلةً:

«أنا لا أقبلُ أن يحدثَ ذلكَ فى بيتى».

نظر إليَها مستفهمًا فواصلتْ الحديث:

«هؤلاء المنبـوذونَ، هنا فى بَيتى؟؟ وأنتَ تصافِحُهم وترحبُ بِهم ضاربًا بالتَّقاليد عُرضَ الحائطِ؟؟»

اقتربَ منهَا بجسـدِه النَّحيلِ واتسعتْ عيناهُ، ولمحتْ فيهمَا دموعًا، كانَ «غاندى» يُجاهدُ كى لاتسقطُ ولكنَّها انسابتْ فى غزارةٍ وبلَّلتْ وجنتيهِ، قالَ:

«هـل تذكرينَ ليلتِك الأولىَ فى جنـوبِ إفريقيَا؟ لقد تعرَّضتِ لظلـم، تظنينَ أنَّنى لم ألحظْ حزنَكِ؟ لقد عاهدتُ نفسـىَ أن أكونَ نصيرَ المظلوميـنَ، و أن أردَّ اليكِ اعتبارَكِ يومًا مَا، ولكنَّك اليومَ تلومينَنـى لأننى صافحـتُ مجموعةً من الضُّعفاء الذينَ نُسـميهم فـى الهندِ منبوذينَ ونوكلُ إليهم أحقـر المهنِ، ونظلمُهم فى كلِّ لحظةٍ، كيفَ نطالبُ بالعدالةِ إذا لم نردعْ أنفسنَا عن ظلمِ الآخرينَ،

«كاستروباى» بحقٍّ ما بيننَا من قسم يربطُنا سويًّا....».

لم يستطعْ أن يُكملَ كلامه فى تلكَ الليلةِ البعيدةِ ولم تكنْ بحاجةٍ إلى إيضاح أكثر فقد فهمتْ.

إنَّها الآنَ تفهمُ «غاندى» كمَا تفهمُ نفسَها، وهى تدركُ تمامًا مغزى مسيرتِه، بالطَّبع قد ترامى إلى مسامعهَا سخريةُ البعضِ ممَّا يفعلُه «غاندى»، ولكنَّهم لن يسخروا فى نهايةِ رحلتِه وسوفَ يدركونَ أنَّ قبضةَ المِلْحِ هى خطوةٌ كبيرةٌ من أجل الحرية.

كانتْ تتابعُ أخبارَ رحلتِه الجريئةِ لحظةً بلحظةٍ.

* * *

واصلَ الرَّكبُ تقدُّمَه وانْضمَّ إليهِ المزيدُ من المؤيدينَ، الَّذين يرتدونَ الأقمشةَ البيضاءَ الَّتى نسجوهَا بأنفسِهم.

تقدَّموا حفاةً قاصدينَ شاطئَ البحرِ.

التفتَ «غاندى» نحوهَم وفكَّر:

«إنَّهم يبدونَ مثلَ طوفانٍ من الغضبِ الأبيَض، لقد انتظرتْ الهندُ طويلاً لترى أبناءهَا يتَّحدونَ ليحرِّروهَا، كَم عامًا انتظرتْ؟ أعوامًا كثيرةً، مئاتٍ من السِّنين».

تأمَّل «غاندى» عجوزًا انضمَّ فى حماسٍ إلى الموكبِ، سألهَ غَاندى «ماذاَ تتوقَّع فى نهايةِ المسيرةِ»؟

كان يريدُ أن يفهمَ لماذا ينضمُّ إلى مسيرتهِ الآلافُ.

لم يتوقَّف الرَّجل وواصلَ قائلاً:

«لقدِ التقيتُ بكَ أيُّها المُعَلِّمُ منذُ سنوَاتٍ رُبمَّا لا تذكرُ، قلتَ لى إنكَ تجوبَ الهندَ كى تفهمَ، ورأيتُك تُعلِّمُ أهلُ قريتى أهميَّة أن يغزلوا ملابسَهم ويكسبوا قوتَهم بلْ لقد شدَّدتَ على أهميةِ النَّظافةِ وضرورةِ الابتعادِ عن الكحلِ والتَّحدث بالهندوستانيَّة، لقد حدثتنا كثيرًا عن الحريَّة، أنا لا أفهمُ حتَّى هذه اللحظة لماذا تتوجَّه هذه الحشودُ إلى الشاطئِ ولكنِّى انضمُّ إليكَ من أجل مافعلتَه معنَا وقلتَه لنا».

أرادَ «غاندى» الاسترسَالَ فى الحديثِ مع الرَّجل وخاصَّة بعد اكتشافه أنَّه صديقٌ قديمٌ، ولكن الأفكارَ أخذتْه مرةً أخرى، إنَّه يفعلُ ذلكَ من أجلِ بلادِه، منذ متى والهندُ تعانى.

«بدأتْ المأسَاة منذُ قرونٍ حينَ أنشأتْ شركةُ الهندِ الشَّرقية أولَ مصنعٍ لهَا فى «سورات» كانَ هذا عام ١٦١٣، وتطلَّب الأمرُ ما يَربو على القرن كى تحدثَ مواجهاتٌ بين الجيوشِ الإنجليزيَّة

والهنودِ، بعدَها يعلنُ اللورد «كليف» أنَّ الهند صارتْ مستعمرةً بريطانيَّة عام ١٧٦٠».

علا التَّهليلُ فجأةً من حولِه، أفاقَ «غاندى»، كانَ الشَّاطئَ علَى مرمى بصرِهِ، والآنَ ماذا يتوقَّعُ العالَمُ منهُ، بعد أن سار مائتين وأربعينَ ميلا على قدميهِ.

لاحتْ له من بعيدٍ حشودُ الصَّحفيينَ والمراسلينَ الأجَانب.

اتَّجه فى ثباتٍ نحوَ هدفِه حتَّى لامست الأمواجُ قدمْيه الحافيتيْن وانحنَى ليملأ كفَه بالمِلْح. ثمَّ رفعَه عاليًا، والتفتَ يواجِه الجموعَ المحتشدةَ، عمَّ الصَّمتُ المكانَ حينَ بدأ يقولُ «المستعمرُ له قوانينُه، هذه القوانينُ الَّتى سُنَّتْ كى تخدمَ مصالحَه، لا تأبهُ أنْ تجورَ وتظلمَ أهل البلدِ، لتُرْضِىَ أطماعَه وأنانيتَه وجبروتَه،الوضع لايختلفُ فى الهندِ كثيرًا، فهى تئن منذ قرونٍ، منذُ أن وضعَ الإنجليزُ قبضتَهم عليهَا واستعمروهَا».

رفع قبضتَه الممتلئة بالمِلْح وقالَ:

«المِلْحُ خيرُ مِثالٍ علَى ذلكَ، فهوَ مِلْكُ الإنجليز يحظرونَ تجارتَه، ويفرضونَ عليه الضَّرائب البَاهظة، ولايهمُهم أن تجعلَه هذه الضَّرائب غيرَ متاحٍ على مائدةِ فقراءِ الهندِ، لقد قطعتُ كلَّ

هذه المسَـافةِ كى أقولَ للهنودِ، ها أنا أغترفُ من الملح مَا أشاءُ، ولتذهْب قوانينَ المسـتعمِر إلى الجحيمِ، تعيشُ الهندُ، وليحيَا الإنسانُ حرًّا».

لقد فَهم الهنودُ والإنجليزُ الرِّسـالةَ، لم تكنْ مجردَ قبضةِ ملح يغترفُهـا أمامَ الكاميراتِ والصَّحفيين، فهناكَ معنى عميقٌ وكبيرٌ أدركه فورَ أن أنهى خطابَه الهنودُ الحفاةُ الذينَ شَـاركوه الرِّحلة على الأقدام نحوَ شهرٍ، والملايين عبرَ العالم.

تدافع مئاتُ الألوفِ من الهنودِ فى الأسَـابيع التَّالية للرَّحلة، فى محاولةٍ أن يفعلوَا مثلَ مَا فعلَ «غاندى».

ألقتْ السُّـلطاتُ البريطانيَّة القبـضَ علَى ما يَربو المائةِ ألفٍ، ولكن هذاَ لمْ يُوقِفْ مسيرةَ الحريَّةِ، لقد بدأ «غاندى» الرِّحلة نحوَ استقلالِ الهندِ ولا رجعةَ الآنَ.

* * *

سـافرَ «غاندى» إلـى إنجلترا لعرض قضيَّة بـلادِه فى اجتمَاع لندن، وهـوَ يرتدى الملابسَ نفسَـهَا الَّتى قام بغزلِهَا بنفسِـه، ورفض الإقامةَ فى الفندقِ الفخمِ الَّذى قرروه لَه، وآثرَ النزولَ فى مكانٍ يتوافقُ مع شخصيتِهِ البسيطةِ ومبَادئه.

قوبلَ «غاندى» بحفاوةٍ وإعجَابٍ، فأحبَّه الأطفالُ والكبارُ كما احتفَى بهِ العديدُ من الشَّخصيات العَامة هناكَ، ولكنَّه لم يتوصَّل إلى شيءٍ يُذكرُ وعادَ إلى الهندِ دونَ أى وعودٍ.

أُلقىَ القبضُ عليهِ فورَ عودتهِ، كى لايُنظم حملاتٍ أخرى للمحاربةِ بقوةِ الحقِّ.

تأمل «غاندى» جدرانَ السِّجنِ وخاطبَ نفسَه:

«يظنونَ أن استقلالَ الهندِ يتوقَّف علَى «غاندى»، خطأٌ كبيرٌ، إنَّه يتوقَّفُ على الهنودِ، وعلَى الطَّبيعة الإنسانيَّة المُحبَّةِ للحريَّةِ والكرَامةِ».

كانتْ أخبارُ أتباعِهِ فى المركزِ الرُّوحىِّ الَّذى انشأهُ فى سابارماتى تتواترُ عليهِ، لقد فرضتْ الحكومةُ الإنجليزيَّة الضَّرائب على المركزِ، واستولتْ على بضائعهم وممتلكاتِهم حينَ لمْ يَستجيبوا.

قرَّرَ أن يغلق المركزِ فورَ خروجِهِ، سيطلبُ من أتباعِهِ المقيمينَ هناكَ الانتشارَ فى أنحاء الهندِ وتعليم الناس الدُّروسَ التَّى تعلموها هناكَ.

كانتْ عينا «غاندى» تصطدمُ بجدرانِ السِّجنِ ولاتتوقَّف عندهَا، كان يرى تضاريسَ بلادِهِ: الربوعَ والقرىَ والناسَ، لقد طَافَ فى

أنحَـاءِ الهندِ مراتٍ عديدةً حتى عرفها كما يعرفُ نفسَـه. وأتاهُ شعورُ أن الحريَّةَ باتتْ قريبةً.

أُطلِقَ سـراحُ «غاندى» واسـتمرَّ كفاحُه ضدَّ الاسـتعمارِ، أغلقَ المركزَ الذى أنشـأهُ فى سـابارماتى وأمر أتباعَه، أنْ ينتشروا فى أنحاءِ الهندِ، لنشرِ التَّعاليم والمبَادئ التى تعلموها فى المركزِ.

كانَ يقولُ لهم وبدا عليهم التأثرُ:

«سرعانَ مَاسوفَ نلتقى».

لَمْ يكنْ الأمرُ سـهلاً عليهِ، فقد شـهدَ هـذا المركزُ الكثيرَ من رحلةِ كفاحِهِ.

هوَّنتْ عليه «كاستروباى» الأمرَ:

«ستبقى التَّعاليمُ والمبادئ التى أرسيتَها داخلَه».

وافقهَا «غاندى» ولكن بعد فترةٍ عاودَه الحنين لإنشاء مركزٍ آخر حدثَ هذا فى عَام ١٩٣٦، أنشـأَ مركزَه الجديدَ فى سفراجام، وهوَ مكانٌ يتوسَّطُ الهندَ.

* * *

قامتْ الحـربُ العالميَّة الثَّانيَّةُ، ورفضَ «غانـدى» أنْ تتورَّطَ الهنـدُ فى الحربِ إلـى جانب بريطانَيا، وبدأ رحلـةَ فى أنحاءِ

الهندِ يَدعو إلى الاستقلالِ ويُعلِّمُ أبناءَ الهندِ كيف يعتمدونَ على أنفسِهم ويستغنونَ عن المستعمرِ.

وفى عَام ١٩٤٢ طالبَ «غاندى» الإنجليزَ بالرَّحيلِ وبدأ حملةَ عصيانٍ مدنىٍّ.

أُلقىَ القبضُ على «غاندى» كمَا تمَّ القبضُ علَى زوجتِهِ وهى تنظِّمُ أحدَ الاجتماعاتِ وأُرسلتْ إلى السِّجن نفسِهِ.

كانتْ «كاستروباى» تهوِّنُ عليه أمرَ سجنهمَا واستمدَّ من وجودهَا القوةَ، ولكنَّها استيقظتْ ذاتَ ليلةٍ عَام ١٩٤٤ وأيقظتْه وكانَا لايزالانِ داخلَ السِّجنِ قالتْ:

«خارجَ هذه الجدرَانِ توجدُ هند جديدةٌ ومروجٌ وسماءٌ صافيةٌ وطيورٌ تغرِّدُ، سنخرجُ من هنَا أسرعَ ممَّا تتصورُ».

لاحظَ «غاندى» تغيُّرًا فى صوتِهَا، خاطبهَا فى قلقٍ:

«كاستروباى» ماذا بكِ، هل أنتِ بخيرٍ؟».

سعلتْ وقالتْ: «أجلْ أجلْ».

وواصلتْ الحديثَ:

«هناكَ أيضًا فى الخارج ملائكةٌ وزهورٌ مُلونةٌ، وأطفَالٌ يَظنونَ أنَّ العالَمَ مِلْكٌ لهم، و أنَّ الجَّنةَ هى قطعةٌ من السُّكرِ».

وفجأةً سكتتْ إلى الأبدِ، لمْ يصدقْ «غاندى» أنَّ رفيقةَ دربهِ ماتتْ، وتحولتْ إلى ذكرىَ. كانَ الألمُ شديدًا، أقوىَ من الكلماتِ والدَموعِ.

* * *

نالتْ الهندُ استقلالَها عَام ١٩٤٧، وانفصلَ المسلمونَ بقيادةِ «محمد جناح» وأسموا دولتَهم الجديدةَ باكستان.

ولم يكنْ «غاندى» مُقرًّا للتقسيم ولكنَّه تقَّبله فى النهايةِ.

فورَ إعلانِ الاستقلالِ حدثتْ مصادَماتٌ بين المسلمينَ والهندوسِ، أثناءَ انتقالِ الهندوسَ من باكستانِ والمسلمونَ إليها.

بقيتْ مشكلةُ إقليم كشمير معلقةً حتَّى اليومَ بين الهندِ وباكستانِ.

أما «غاندى» أو روحُ الهندِ العظيمةُ كمَا أسماه «طاغور» فقد قُتِلَ عَامَ ١٩٤٨ على يدِ أحد المتطرفينَ الهندوسِ.